http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد (1847) السنة السابعة - الاربعاء (14) تموز 2010

مشروعية الثقافة في التغيير

ياسين طه حافظ

" ١ "

لسنا على خلاف مع احد يقول ان الجماعات الانسانية تشترك في امتلاك المخزون كله او كثيراً من الارث الثقافي البشري.. لكننا نختلف حين يهمل البعض الفوارق في استيعاب هذا المخزون واهمال التجارب الشخصية- سواء أكانت هذه التجارب تجارب فردية ام تجارب جماعات ينتمي لها الافراد.. هنالك تمايزات وخصائص والنتيجة هنالك فعل لكل ثقافة مختلف عن فعل ثقافة جماعة اخرى أوثقافة انسان اخر. فلا الفعل واحد ولا ردود الفعل واحدة ولا الحلول التي تطرح لحل المشاكل واحدة بسبب اختلاف الثقافات الحاصلة.

وما يعقد المسألة اكثر ان الثقافة عادة ما تزود الافعال الطبيعية بتوجيهاتها فلا استعمال الطباعة واحد ولا استخدام السكين واحد ولا طريقة تناول الطعام بل العمل الجنسي والنوم وتربية الاطفال... وهذا مما يزيد الاختلاف بين الجماعات الانسانية ويجعل لثقافاتهم من بعد تأثيرات مختلفة.

الطبيب الجراح. وان طبيبين من التخصص نفسه ولهما زمن خبرة واحد يختلفان في التصرف لأسباب اخرى لا علاقة لها بالعلم والاجتهاد. بل وراء الاجتهادات مؤثرات مجهولة جذورها الثقافية وواضح أثرها.

الثقافات إذن مثلما هي تراتبية فهي مختلفة أيضاً. ومثلما تزيح ثقافة مهيمنة ثقافة اخرى، الثقافة الاخرى لا تستسلم طوعا، واذا استسلمت تترك بعضاً من تأثيراتها في الثقافة الضد.

نعم نحن نريد ثقافة، ولا معنى للعصر بلا ثقافة والحضارة ناتج مكونات ثقافية، لكننا نتأمل اليوم الفعل القسري للثقافة، أي ثقافة، ضد اخرى. فليس هذا امرا هينا اذا علمنا ان الثقافة "هي جملة المنجزات الفنية والفكرية والاخلاقية التي تكون تراث الامة..." والقسر هنا عمل لا يمكن قبوله بافتراض الصلاح وعدمه. فنحن لا نحتكم بالامور النسبية. وضرورات المستقبل والتقدم لم تتحدد بعد بشكل يرضي كل المجتمعات أو كل الثقافات.

ان وحدة الجنس البشري منطلق جيد وذو جدوى مشتركة. كما انه انساني مكتمل الانسانية. ونحن لا نأتي بجديد حين ندعو لذلك. فذلك كان قبل التوسعات الاقطاعية وقبل الخطوط المنقّطة وغير المنقطة على الخرائط وقبل القوميات وتحديد الانتماءات أي حين كانت البراءة. ولم تكن للمنفعة مكاتب.

ان صراع الانتماءات ثم الصراع الخفي والواضح للثقافات القديمة، جعلا للثقافات الحديثة دورا خطيرا في الهيمنة والتنكيل وخلق الحجج العقلية للتدمير والتغيير. ما يبدو تغييرا نحو الافضل يحمل في داخله "عدوانية" من نوع ما، وضررا من نوع ما وتجاوزا على الانسانية من نوع ما أيضاً. فقضاء الثقافة الامريكية "الحديثة في حينها" على ثقافة الهنود الحمر كان عملا مقبولا حضاريا واوجدت له الثقافة مسوغات عقلانية لكن المثقفين الامريكيين والاوربيين، وبعض مثقفي العالم، ادركوا من بعد ان خسارة حصلت وانهم راحوا يجمعون الوثائق والاحداث لفهم بعض جوانب تلك الحضارة. وعندنا الثقافة الشرسة التي قررت تجفيف الاهوار ومساندة الحدث الطارئ على الدائم أو الابدي، أدت إلى نتائج فادحة لبيئة البلاد وطبيعتها. وان الثقافة التي ارتضته لسبب عسكري مؤقت، كان رضاها على حساب ثقافة اخرى لها مدركات اخرى. وهذا ينطبق على امور كثيرة في الجراحة وشق القنوات والانفاق واستنزاف باطن الارض. وقضية الاوزون، ما يقع من خطأ فيها هو نتاج ثقافة خاطئة.

ان انتقال معنى الثقافة من المحلية إلى الكونية ومن الامة إلى الامم ومن الجماعة إلى الانسانية كلها، يعدل كثيرا في بعض المفهومات، وفي الاقل يجعل العزاء في سوئها انها افعال ونتائج انسانية مشتركة. وهنا يصبح الاهتمام لا بما يجب ولكن بما عليه الثقافة في المجتمعات للافادة من المشتركات ولايضاح مصلحة الانسان بعامة على الكوكب. لن تختفي الخسارات ولكننا في الاقل سنكون تحت اشراف منهج فيه رؤية مستقبلية وفيه علمية اشتركت في صنعها الانسانية لا الاعراف ولا الاقطاعيات ولن تكون الامة بديلا عن العالم أو عن الامم مجتمعة.

ان اهتماما عقلانيا بالحياة على الكوكب وبالانسانية عليه يهذب الفرد وتهذيب مجموع الافراد يهذب المجتمع ثم المجتمعات- وهو اتجاه ليس مثاليا في عصرنا حيث تزداد المشاركة في المعارف والتجارب والخبرات والمفاهيم. فما نسعى اليه هو ايقاف التجاوز وتحديد مشروعية التغيير لابعاد الضرر غير المرئي آنيّاً وليكون مبتغانا ثقافة تعبر عن كلية حياة الانسان الاجتماعية، والانسان هنا الانسان على الارض كلها، وان تتميز هذه الثقافة المبتغاة ببعدها الجماعي وجدواها المستقبلية من دون اضرار، قدر الامكان، بما لا يُرى من امتيازات التجارب الانسانية التي قد تدّخِرُ ما يؤسف لخسرانه.

وهذا الكلام يأخذنا بلطف ومرونة إلى قول شنراوس "البربري هو ذلك الذي يعتقد في البربرية..." واظنه يعني ذلك الذي يجرد غيره من كل انسانيته أو ثقافته....

"٢"

تحدثنا في القسم الاول من هذا الموضوع عما قد تفعله الثقافة (وطنية أو قومية أو فردية خاصة وهي ثقافات) ذات نسب من ثقافة الماضي وانبثاقات الحاضر فيها غير محددة ولا مألوفة دائماً...)، اقول فيما تفعله هكذا ثقافة خاصة في توجيه البحث أو الدراسة مما يسم الباحث بالانحياز وان لم يشأ هو ذلك. وبسبب من ذلك تؤدي الثقافة الفردية إلى ان يشعر المواطن بحق التغيير وبحق التجاوز وبحق احلال نفسه محل الاخر الذي يحيلهُ هذا الاتجاه إلى خصم أو تابع أو حتى الى سلعة يمكن التصرف بها.

ومن هذه الثقافة ايضاً ينبثق النص المكتوب. وسواء أكان النص المكتوب نظرياً، أم ابداعيا، فهو داعية تغيير. تغيير فكر وموقف أو تغيير مزاج ومشاعر. والاثنان يسعيان لرفض عالم وخلق عالم. فاذا افترضنا ان الكاتب يستبطن احتياجات الناس، مادة أو احلاما، وهو افتراض لا يمتلك شرعية كافية، وانه من بعد يعبر عنهم ولا يختصهم معهم، فان الناس ليسو نسيجا معروفة نسبُ مكوناته. واستبطان حاجتهم كمجموع لا تمثلهم نتائجهُ. بل قد تكون النتائج مشوهة وخليط افتراضات أو تصورات.

اعتقد بان الكتابة الادبية عموما هي نشاط في مجال قلب التاريخ، ومحاولة خلط جديد لمكونات الحياة الفكرية، وفي جميع الاحوال ليس هناك ضمان لسلامة أو مشروعية الاتجاه.

واذا كان هذا ما يفعله النص، فان اعادة قراءة النص، أو نقده، أو اعادة عرضه على وفق ثقافة الناقد، عملية تدخُل جديدة في الصناعة الادبية. حتى المراجعة الصحفية تفعل ذلك عن طريق التأكيد أو الاغفال، التأكيد على هذه المفردة، أو الاسطر، واغفال تلك المفردة أو الاسطر. أي ان المراجعة هنا تقوم بسلسلة انحيازات.. هناك إذن رغبة في التجاوز على النص واحلال ما في ذهن المراجع محلها. المراجع أيضاً يريد ان يجد نفسه أو ان يحتل له في مساحة النص مكانا (لإرادته أو ثقافته). والنقد مهما ابدى من اهتمام بالنص، هو أيضاً يجري تدريبات لنواياه في ان تتدخل في النص وفي القيام بفعل ازاحة واحلال.

لكن هذا يقودنا الى موضوع آخر: هو لماذا يحصل هذا، أو لماذا يجهد الناقد من اجل النص؟ شخصيا اظنه صراع ثقافات خفي غطاؤه. كتابة الادب أو الاهتمام بالادب. كتابة النص والتنافس من بعد عليه وان عمليات رفض وقبول وازاحة واحلال تستغرق صفحات هي صفحات المقارنة النقدية.

هذا تفسير. وقد يكون للظاهرة تفسير اخر، ذو نفَس شرعي. ذلك ان النص كتب بثقافة خاصة لهاً طبيعتها. وان النقد من بعد تدخل ليستجلي النصَّ وكوامنَهُ. هذا الاستجلاء يثير ثقافة الناقد الخاصة، وهي هنا ثقافة مقنعة بقناع النقد، كشفا أو مراجعة أو تحليلا. تجد ثقافة الناقد هنا فرصتَها في مقاومة "التمركز الاحادي" أو "المكان الخاص" أو "هيمنة المبدع وسطوة ثقافته". فنحن بهذا امام صراع ثقافتين ومجموعتين من القيم ومجموعتين من الرؤى والمصالح.

وهنا نحن امام عملين مشروعين، نصا ونقدا. وحين نعمم ذلك على الدراسات الفكرية وعموم الثقافة نرانا، ضمن هذا الفهم، امام ضرورة هذا التصدي أو هذا الاعتراض لأن هذه الموازنات تكسر من حدة "الثقافة الخاصة" ومركزيتها ومجرد تدخل ثقافة خاصة اخرى، عنوة أو بسماح، هو محاولة مشاركة في "الحكم" واظن هذا التفاعل أو التضاد بصفته الانسانية يفسح مجالا لانبثاق الرأي الثالث أو الكتابة الثالثة. وهذا يعني، من جملة ما يعنيه، تجدد الرؤى، وتجدد الافكار- وتوفير فرصة جديدة لثقافة قادمة قد تكون هي الاخرى خاصة، ولكنها بالتأكيد صارت اكثر رحابة، واكثر ديمقراطية بمعنى من المعاني، وان الثقافة هنا تكتسب بفاعليتها مشروعية اكثر!

ان القول بأن الثقافة والحضارة تنتميان إلى ذات الحقل الدلالي ولكنهما ليستا مترادفتين تماما (اذ تستحضر "ثقافة" التقدم الفردي وتستحضر "حضارة" التقدم الجماعي)، هو قول مقبول مع ادراكنا بأن مجموع ثقافات الافراد يشكل حضارة لكن حديثنا بصدد التحولات القسرية التي تحدثها الثقافة في حياة الناس ومشروعية الازاحات لثقافة نريد وثقافة لا نريد.. فالمشكلة اذن هي ان الثقافة "بخصوصيتها" ملكية شخصية ومهما تشابهت ثقافتي مع ثقافة الآخر، يظل هناك ما يميز ثقافته (ويميز ثقافتي) سواء بانتماءاتها الماضية أو بنفعيتها الحالية أو بمؤثراتها المستقبلية. خلاصة الماضي وتنظيمات الحاضر في أي ثقافة تعملان باتجاه تحقيق رؤى مستقبلية اذا تشابهت جدا بين الافراد أو بين الجماعات- ولا ارى ذلك ممكنا، الا بقدر. فهي قطعا تختلف بين الجماعات والدول- الشعوب وهي قطعاً تختلف وان بدرجة اقل بين الافراد. اننا لا نستطيع هنا توظيف "المثال" للاقناع ولكننا نستحضر ملاحظاتنا من يومنا ومن التاريخ.

العمل الانساني الجاد لصالح مستقبل الثقافة الانسانية يستدعي ممارسة التهذيب الدائب في اثناء الكتابة والبحث ومحاولة التخلص بجهد مواز من الاعشاب الضارة في حديقة الثقافة الانسانية وحتى تصل البشرية مستوى حضاريا ومستوى اداريا" يجعلان البشرَ سكنةَ الكوكب" الذين يولدون ويموتون عليه، والذين يعملون، في المسافة الفاصلة لسعادتهم ولافضلية المستقبل. وحين الوصول إلى هذا المبتغى يصبح الماضي ملكا عاما والمستقبل ملكا عاما. واظنها مرحلة وان كانت افتراضية اليوم، ستكون مرحلة الثقافة الانسانية، الانسانية حقا في المستقبل!.

"٣"

فهل يستطيع الباحث بمجرد القرار العلمي ان يتجاوز ذلك؟ لا اظن ذلك ممكنا. لأن الامر اصلا خلاف رغبة الباحث، حسن النية، الذي تسيره "ثقافته" ما الحل؟ هل يستسلم المثقفون، الباحثون الكبار، لواقع يريدون تجاوزه؟.

في الدراسات العليا تتحكم بعض القوانين الاخلاقية في حماية جزئية للبحث من بعض الانزلاقات غير العلمية. لكن هذه جزئية وشكلية في الغالب. وقد تتعقد اكثر اذا تطابقت انحيازات المشرف اللاارادية مع انحيازات الباحث، وهما يعتمدان انسانية وراءها تلكم المكونات. اذن كل تلك التوجيهات، والشروط لا تستطيع منع الباحث، المثقف الكبير، وليس باحث الدراسة العليا وحده، من الاستفادة من ثقافته، أي من الامر الطبيعي، وثقافته هذه تؤثر في اتجاه البحث والدراسة.

هذا السبب وراء "طغيان" بعض الافكار والمفهومات والنظريات أيضا.

هنا تبدأ مشكلة جديدة صحبت التاريخ البشري كمسلمة وامر بديهي واقع. فحين نتحدث عن موضوعة الثقافة والمجتمع يبرز في حديثنا الجانب الاخلاقي ومبدئية حماية المجتمع والاهتمام بما "ينفعه" أو "يطوره" من دون اهتمام بأن للثقافة في هذه الحال دورا قد يكون سلبيا حين تهيمن على المجتمع لتخضعه أو تروضه على قبول افكار قد تكون لصالح سواهم اكثر مما لصالحهم. وفي المجتمعات الحديثة شواهد كثيرة واضحة. وحتى اذا تجاوزنا هذا السلب ففي طغيان أي ثقافة نوع من القسر والارغام.

لسنا في موضع مناقشة هذه المسالة وان كان التاريخ والعصر شاهدين كبيرين على فعل الظواهر الثقافية في "توجيه" الناس أو في تغيير قناعاتهم وانظمة حياتهم وحتى اماكنهم ولعل جغرافية كثير من البلدان غيرتها الثقافات (الحاكمة).. باختصار أقول: لفائدة أو لغير فائدة، هي تغير بقوة فعلها الثقافي!

موضوعات مثل تاريخ الفن وفلسفته، وعلوم اللغة ونظريات الاقتصاد والبحوث العلمية، موضوعات تخص الانسانية، كل الانسانية. وقد يتبنى الدارس هذا الموقف الإنساني بالنسبة له انسانا و اللاانساني بالنسبة لسواه وهو يبحث اليوم!.

ويستنتج. لكن المشكلة هي انه يعتمد "ثقافته" هو في الدراسة والاستنتاج. وقدر ما تبدو هذه المسالة طبيعية، فهي من ناحية اخرى ترسم اتهاما بالانحياز. هذا الانحياز لم يكن قصديا ولكن سحبته الدراسة اليه. لقد تحكمت في النتائج خلفيته الثقافية.

فنحن الأن اذن امام مسألتين لاعداد باحث انموذجي أو مُتَمنّى: الاولى تربوية والثانية ثقافية.

تربويا ان يُعَدّ ابن العصر "المثقف" لأن يكون انسانيا يرى العالم كله وطنه وان الكوكب الارضي لا تتوزعه الاسماء على الخرائط بل تمتلكه البشرية التي هو واحد منها.

وهذه يمكن، بهذا القدر أو ذاك، ان تُوَفرَّ، بالتربية الحديثة ذات الاتجاه الانساني (وهي ايسر، وممكنة اكثر بالنسبة لباحث أو دارس. فمستوى هذا الدارس الحضاري يؤهله لمثل ذلك ان كان مكتمل التهذيب روحيا ومتوازناً عاطفيا. (واعني هنا التوازن العاطفي كما يفهمه علم النفس).

يبقى الاشكال الثقافي الاساس للجماعات البشرية والتي ينظر لها عادة افراد. هذه مسألة غاية في الصعوبة. ذلك لأن لكل باحث في كل بلد ثقافته التي ينطلق منها ويتوسل بها للفهم ويعتمدها في الاستنتاج والاحكام وليس سهلا ان يتخلص أو ان يوقف مؤثراتها الوطنية والتاريخية وحركة الحياة اليومية فيها. تلك كلها مؤثرات تُرى ولا تُرى في التكوين الثقافي.

ما هو الحل اذن؟ امام قدرة الثقافة على ان ترفع وتخفض من مقام اية ظاهرة أو فكرة أو نظام اجتماعي، وهي التي من بعدُ تصنّفَ وتمنح مزايا ضمن مجالها الثقافي وخارجه؟ ان حديثنا يتخذ الان، ولسبب من هذا الاستطراد الضروري للكشف، اتجاها محيرا، أو تأمليا، في وقتٍ نريد فيه تجديد الثقافة وتجديد المجتمع.

فما دمنا نريد المجتمع الانساني كله والثقافة الانسانية لدى أي من جهابذتها أو مفكريها، فنحن اذن لا نهتم بما كان المفكر الثقافي عليه ولا بما كانته الثقافة. اهتمامنا كله بما نتمنى ان يكون عليه المثقف والثقافة.

ان مسالك تحقيق الامنية ما تزال حتى الان غير واضحة، بل غير سالكة، لان الباحث الثقافي أو المفكر الثقافي، يعمل داخل اطر رسمية وشخصية. الرسمية محكومة بشروط والشخصية محكومة بتربية- اعني بماض وبـ(نوع) من الثقافة. ومَنْ من المثقفين حتى اليوم تخلص تماما من تلك التداخلات وذلك التشابك حتى اذا ظن نفسه كذلك؟ والسؤال الاكثر صعوبة هو: اذا افترضنا استقلال الثقافة، فمن يمنحها مشروعية تصرفها خارج الانظمة- اعني خارج اطر المجتمع والمصالح؟ ثم يعترضنا سؤال اكثر مشاكسة، وهو: الا يمارس الكاتب سلطة ما حين يزيح حالة ويضع مكانها حالة، وحين يزيح فكرا ليضع مكانه فكرا، وحين يغير واقعا ليمهد لواقع اختارته ثقافته؟

نحن الآن داخل شبكة من الاسئلة، كل سؤال منها صعب. لكننا نعتقد بأن اثارتها وحدها هي مكسبنا اليوم!.

الرسائل المتبادلة بين الرصافي ومعاصريه.. العظماء لايغلبهم الموت

محمود النمر

الرصافي يلقي احدى قصائده في مدرسة ببغداد

الرسائل في المفهوم الانساني هي وثائق دامغة لاثبات احداث وتواريخ ربما تكون في اغلب الاحيان سرية غير قابلة للكشف، الا بعد انتهاء اكثر من نصف قرن او اكثر او ربما تستمر هذه السرية الى اكثر من قرون، لما تمثله هذه الرسائل من اهمية في حقائق دامغة وتبقى في غاية السرية لانها تمثل اسرار حروب او تاريخ ملوك او ملكات او دول ممكن ان تنهار او تصبح هناك ازمات سياسية اذا كشف عنها النقاب، لانها قد تؤدي الى حروب مابين دول كما حدث من الرسائل التي كانت تكتبها ملكة فرنسا (ماري انطوانيت) وتكشف تلك الرسائل التناقض في شخصيتها وكونها امرأة سطحية الثقافة ولم تتعلم بما يتناسب مع مركزها الاجتماعي،وبعد قيام الثورة الفرنسية اصبحت مدلولات تلك الرسائل اكثر عمقا في فضح ذلك النظام الملكي التي كانت تدير دفة الحكم فيه ملكة خارقة الجمال تعيش ليال حمراء، وملك ابله ذو وجه قبيح في كل شيء.

يحتوي كتاب(رسائل الرصافي) على ١٢٨رسالة متنوعة من شعراء الى ساسة ومفكرين ورجال دين ابتداء من الاب انستانس ماري الكرملي وانتهاء بصلاح اللبابيدي حول طبع كتاب(آراء ابي العلاء المعري)هذا الكتاب هو من اصدارات دار المدى للثقافة والنشر ويضم ٢١٤صفحة، جمع هذه الرسائل وعلق عليها عبدالحميد الرشودي وجاء فيها(لقد بث الرصافي في بعض رسائله شكواه مما يكابده من جور السلطان وتنكر الزمان واسلوبه في رسائله متفاوت، فهو حين يكتب الى العلماء والادباء وذوي الرأي كعبدالقادر المغربي وطه الراوي وبشارة الخوري، يصطنع اسلوبا ادبيا عاليا وربما عمد الى استعمال بعض الغريب النافر بين مفرداته).

ان سعة افق الشاعر معروف الرصافي بالتواصل مع الادباء والمفكرين العرب لها دلالة على ان هذا الشاعر يفتح فضاءات اتصال مع العالم بالرغم من صعوبة الاتصال انذاك،ولكن ايمان الرصافي على ان الثقافة لابد لها من التلاقح والتواشج وتبادل الرأي والرأي الاخر،لأن الثقافة لايمكن ان تبقى حبيسة رقعة جغرافية صغيرة منغلقة على نفسها وترفض تبادل الرأي والرأي الآخر،لذلك استطاع الرصافي ان يمد جسورا من العلاقات المشتركة لتفعيل الحراك الثقافي.

والجدير بالذكر ان الرصافي كان يعلن عن ولاءاته بكل ثقة وعزيمة، وطني ينتمي الى هذا الوطن بعزيمة صادقة لاتشوبها اية شائبة.

ففي احدى الرسائل الموجهة الى الملك فيصل الاول يعاتبه فيها عن اعراض جلالة الملك عنه وعدم اعطائه حقه في العفو الذي شمل جميع الوطنيين الذين انتقدوا والده في قضية الولاءات التي اعلنت من قبل الملك غازي في الأستانة عن الحرب وجاء في الرسالة(اعلنت الحرب العامة وانا في الأستانة كنت مبعوثا عن العراق فكان ما كان حتى نهض جلالة والدكم نهضته المعلومة فلم يكن يسعني إلا احد امرين السكوت او الكلام بما ينطبق على عقيدتي السياسية وقد علمتم ماهي ولكن دوافع الكلام توفرت بما لامحل لذكره هنا فاضطررت الى القول وقلت تلك القصيدة التي اوجبت غضبكم علي الى يومنا هذا) صفحة ٤٢.

والملفت للنظر ان الرصافي كان يتقصى الحقائق في كل شيء او يعتبر ان الامر ملقى على عاتقه في التوضيح والاشارة وكأنه يعلن عن براءته عما يجري او يحدث في البلاد،وهذا ليس بالامر الهين باعلان كل ما تظن صحيح وتجهر به امام الملأ،وهذا ما جعل الرصافي في مرمى السهام ولكنه كان ينام قرير العين لأنه افصح واعلن عن ما يظن به دون ان يخاف لومة لائم.

ووطنية الرصافي لايشك بها احد وقد دفع ثمن هذه المواقف السامية وعاش فقيرا ومات فقيرا ولكنه كان حتى في الضمائر الميتة(حي)ينتصر للوطن والفقراء وقصائده شاهدة على ذلك

علمٌ ودستور ومجلس امة..... كل عن المعنى الصحيح محرّفُ

او يصرخ بكل ما أوتي الشعر من قوة في وجه الفقر حين يشاهد امرأة بثياب رثة سود مات من يعيلها على اعانة اولادها :

لقيتها ليتني ماكنت القاها..... تمشي وقد اثقل الاملاق ممشاها

مات الرصافي فقيرا، ولكنه بقي في ضمير الامة العراقية والضمير التحرري للانسانية كان شاهدا على عصره،وهذه الرسائل هي شاهد آخر بأن العظماء لا يغلبهم الموت !.

في مباهج القصة القصيرة موت فقير..!

باسم عبد الحميد حمودي

تبدو كتابات بعض المتابعين والنقاد في العراق وغيره من البلدان العربية عن تاريخية مصطلح(القصة القصيرة جدا)مجانبة للواقع بل ومثيرة للدهشة بشكل يثير الالم لقدرة هؤلاء على التغطية على فشلهم في الدرس والمتابعة والاستقصاء، واعتمادهم على الآفة النقدية الكبرى في هذا العصر وهي الانترنيت دون سواه، وبذلك فهم ينظّرون دون مراجعة لحقيقة وجود النص تاريخيا.

في عام ١٩٣١ كتب المحامي العراقي الموصلي ثلاث قصص قصيرة جدا في جريدة(البلاد)البغدادية سمّاها بهذا العنوان –ق ق جدا – واولها اقصوصة(موت فقير)، وكانت كل قصة من الثلاثة تحمل مواصفات القصة القصيرة جدا ومواصفات القصة القصيرة المتداولة أيامها من مقدمة إلى الذروة الى النهاية، وقد اكتشفت ذلك أثناء عملي في أعداد ارشيف للقصة العراقية عام ١٩٧٣، ورغم وجود عدد مرموق من القصاصين والنقاد في لجنة الارشيف التي اشتغلت لحساب المؤسسة العامة للاذاعة والتلفزيون(يرأسها مالك المطلبي ومن اعضائها غازي العبادي وعبد الجبار عباس وخضير عبد الامير وعبد عون الروضان وأحمد فياض المفرجي الذي سافرت معه الى مراكز المحافظات العراقية بحثا عن النادر من النصوص)الاأني احتفظت بكشفي الذي يسبق ظهور(انفعالات)لناتالي ساروت بسنوات.

أعتمد الدارسون على نصوص ساروت لاثبات تاريخية النص الخاص بـ(ق ق ح)، قبل وصول نصوص بورخس وساراماغو وعزيز نسين مترجمة الينا.

من جهتي فقد قمت عام ١٩٨٣ اثناء مسؤليتي لمجلة الاقلام بنشر نصوص لبورخس ترجمها أحمد سخسوخ على ما أظن، لكن امر القصة القصيرة جدا كان شائعا تماما قبل ذلك بأعوام ؛ حيث كتب يوسف الشاروني(قصص في دقائق)وفي عناوين اخرى وكتب زكريا تامر ووليد اخلاصي نصوصا كثيرة في هذا الاتجاه..... كان ذلك في الخمسينيات والستينيات –هكذا يكتبون الحقب المفترضة – وفي العراق بدأ خالد حبيب الراوي وعبد الرحمن الربيعي يكتبان هذا اللون من القصص خلال الهياج الستيني وبعده، لكن الامر تطلب سنوات لترسخ هذا اللون ونضج تجربته.

السنوات تمر وقد ووجدنا أكثر من ناقد ودارس ينسبون مجد هذا اللون تاريخيا الى العمة ساروت متغافلين عن تجربة رسام العراقية السابقة لهاولسان حالهم يقول: أيسبق العراقي المغمور سيدة القصة في عصرها؟

السنوات تمر ووجدنا اكثر من دارس او محسوب على النقد يذكر اسماء اخرى محتفيا دون ان يعرّج على دراسات لكاتب هذه السطور التي نشرت عام ١٩٧٤ في(الموقف الثقافي)الدمشقية وفي غير عدد من مجلات(الاقلام)و(الاديب المعاصر) و(الرواد)بعد ذلك، عدا الروائي احمد خلف في عدة دراسات له.

هنا يبدو من المباهج الجميلة في تاريخية القصة القصيرة: أن تكون قد امتلكت المعلومة، وأن غيرك يتجاهلها لغرض في نفسه، أو انه لا يعرف الحقيقة التي أتعبت حالك في الوصول اليها، أو انه يهرف بما لايعرف، وهو أمر يثير الاسى والبهجة معا.